مظاهر الحكم في مصر الأموية

الدكتور حسن إبراهيم حسن
أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية الآداب

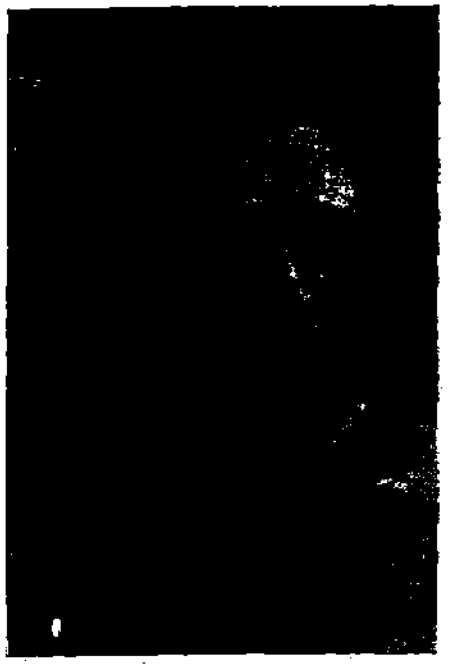

كانت لمصر في العصر الأموي بعض مظاهر عامة لا يستطاع إغفالها كظهور الروح القومية بين المصريين ، وعلى الأخص بعد كتابة الدواوين بالعربية في عهد الوليد بن عبد الملك ابن مروان سنة ٨٧ هـ بعد أن كانت تكتب بالقبطية ، وما انطوى عليه هذا العمل من إقصاء القبط عن كثير من مناصب الدولة ، وكانوا يقومون بجباية الخراج ، وإليهم تسند الوظائف الكتابية ؛ مما أدى إلى إحياء روح القومية عند القبط ، ودفع بهم إلى الصياح والقيام في وجه الولاة ، وما كان أيضاً من اشتداد العمال في جمع الخراج وظهور روح العصبية بين القبائل العربية ، وكان لهذا العصر مزاياه ومظاهر حضارته ، فقد امتاز بعض ولاته بعطفهم على القبط ، فسمح مسلمة بن مخلد (٤٧ — ٦٢ هـ) لهم بأن يبنوا كنيسة في الفسطاط.

ولقد ولي مصر في هذا العصر رجال عرفوا بالكفاية والدراية وحسن السياسة فنشروا العدل بين الناس ، وأتوا بضروب من الإصلاح تشهد بمبلغ اهتمامهم بترقية الزراعة والصناعة وفن العمارة وغيرها

ومن بين هؤلاء مسلمة بن مخلد [1] فقد بنى بالروضة مقياساً للنيل وداراً للصناعة [1] ، ورد الروم على أعقابهم حينما نالوا البرلس ، واهتم ببناء المساجد وإصلاحها ، فأمر في سنة ٥٣ هـ بجامع عمرو ابن العاص فهدم وبني من جديد ، وأمر في السنة نفسها بابتناء منارات المساجد كلها

ولقد وفّى شروط النيابة عن الامام فكان يقيم الصلاة بنفسه طول مدة ولايته ، ونظم الأذان فكان مؤذنو الجامع العتيق يؤذنون الفجر إذا مضى نصف الليل ، فاذا فرغوا من أذانهم أذن كل مؤذن في الفسطاط في وقت واحد ، وأمر ألا يضرب بناقوس عند أذان الفجر .

وكان عبد العزيز بن مروان من أحسن الولاة الذين حكموا مصر في هذا العصر . جاء في صحبة أبيه مروان حين جاء لاسترداد هذه البلاد من عامل عبد الله بن الزبير ، وبقي فيها شهرين . ولما عزم مروان على العودة إلى الشام جعل صلاة مصر وخراجها إلى ابنه عبد العزيز ، وكان بعض المصريين في ذلك الوقت على الشنآن لمروان ولبني أمية ، فخاف عبد العزيز عاقبة مُقامه في هذا البلد وأفضى بذلك إلى أبيه ، فرسم له هذه الخطة المثلى التي ينبغي أن يسير عليها ، فيتألف قلوب المصريين على اختلافهم . وتبين له أن هذا الأمر لا يمكن تحقيقه ، إلا إذا أسرهم عبد العزيز بجوده وإحسانه ، وجذبهم إليه بالمودّة ولين الجانب والبشاشة ، وبين لكل زعيم أنه من خاصته ، وبهذا وحده يتفانى الجميع في خدمته ، ويجمع الكل على طاعته . يقول الكندي [2] قال عبد العزيز : « يا أمير المؤمنين ، كيف المقام ببلد ليس به أحد من بني أمية ؟ » فقال له مروان : « يابني عُمّهم بإحسانك يكونوا كلهم بني أبيك ، واجعل وجهك طلقاً تَصفُ لك مودتهم ، وأوْقع إلى كل رئيس منهم أنه خاصّتُك دون غيره يكن عيناً لك على غيره وينقاد قومه إليك . وقد جعلت معك أخاك بشراً مؤنساً ، وجعلت لك موسى ابن نصير وزيراً ومشيراً وما عليك يابني أن تكون أميراً بأقصى الأرض . أليس ذلك أحسن من إغلاقك بابك وخمولك في منزلك ؟ »

هذه هي النصيحة الذهبية التي زود بها مروان ابنه عبد العزيز عند توليته أمر مصر . ولم يفت مروان أن يزيد ابنه من النصائح

(١) ذكر السيوطي (ج ٢ ص ٥) أن مسلمة ولي مصر من ٤٧ — ٥٩ هـ وهذا خطأ

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦٦

(٢) الكندي : ص ٣٨ — ٤٠ والمقريزي : الخطط ج ١ ص ٣٠١ والانتصار لابن دقاق ج ٤ ص ٦٢ — ٦٣

في وصية أخرى ما يكفل له الراحة والطمأنينة في هذا البلد عند رحيله إلى الشام ، فلقد أوصاه بتقوى الله في السر والعلانية وبالبر بالفقراء ، وبتنفيذ وعده إذا ما وعد ولو حال دون ذلك شوك القتاد ، وأن تكون المشورة رائده قبل الفصل في أمور الدولة ، وبذلك تلهج الألسنة بالدعاء له وبأمن الفتن والقلاقل (١)

ولقد عمل عبد العزيز بنصائح أبيه فنجحت سياسته في مصر النجاح كله ، وأتى في عهده بكثير من ضروب الاصلاح فبنى مقياساً للنيل ، وزاد في الجامع العتيق من ناحية الغرب ، وأدخل في شماله رحبة فسيحة (٢) وأقام على خليج أمير المؤمنين قنطرة عند الحمراء القصوى بطرف الفسطاط وكتب عليها اسمه وذلك سنة ٦٩ هـ (٣) ، واتخذ حلوان داراً لاقامته بعد أن أصيب بداء الجزام على ما يخالف قول المؤرخين من أنه انتقل إليها لتفشي الوباء في الفسطاط ، وأنشأ بها بركة كبيرة ساق إليها الماء من العيون القريبة من المقطم على قناطر aqueducts تصل عيون الماء بالبركة . وفي حلوان غرس عبد العزيز النخيل والأشجار وبنى المساجد والعمارات الفخمة . حتى قيل إنه بذل في سبيل ذلك مليون دينار (٤) ولقد بلغ من عنايته بفن العمارة والتماثيل أن ابتنى في الفسطاط حماما لابنه ذبان ، وأقام على باب هذا الحمام تمثالاً عجيباً من زجاج على شكل امرأة وأطلق عليه أبو مرة ، وباسمه تسمت القيسارية التي كانت ملكا لعبد العزيز باسم قيسارية أبي مرة ، وكانت تعرف في زمن ابن دقاق (المتوفي سنة ٧١١ هـ) بحمام بثينة (٥)

نعم ! لقد طالت ولاية عبد العزيز على مصر فأتيح له أن يأتي بكثير من الاصلاح ، واستطاعت البلاد في أيامه أن تظهر بمظهر النشاط الأدبي والمادي . ولقد بالغ الشعراء فيما أثاه هذا الوالي من أعمال البر والاحسان والكرم ، فقال بعض المؤرخين إنه « كان له ألف جفنة تنصب حول داره ، ومائة جفنة تحمل على العجلات ويطاف بها على قبائل مصر . وفي ذلك يقول الشاعر :

كلُّ يومٍ كأنه يومُ أضحى عند عبد العزيز أو يومُ فِطر
وله ألف جفنة مترعاتٍ كلَّ يوم تمدُّها ألف قِدْر (١)

هذا وبالرغم من أن خراج مصر كان إلى عبد العزيز بن مروان ، فقد قيل إنه لم يترك عند وفاته من المال غير سبعة آلاف دينار عدا أملاكه في حلوان ، وقيسارية أبي مرة وما خلفه من الثياب والخيل والرقيق . فلا غرو إذا أجمع الناس على محبته ورضوا عنه وعن ولايته . ورثاه الشعراء أحسن رثاء فقال سليمان ابن أبان الأنصاري :

فمن ذا الذي يبني المكارم والعُلا
ومن ذا الذي يُهْدَى له بعدك السَّفر
فكنتَ حليف العرف والخير والندى
فأنتن جميعاً حين غَيَّبكَ القَبْرُ
فبعدك لا يُرْجى وليدٌ لنفعةٍ وبعدك لا يرجى عوان ولا بكر

تلك هي مصر في فترة من حياتها الإسلامية الزاهرة في عهد عبد العزيز بن مروان من بني أمية .

حسن ابراهيم حسن

(١) الكندي : ص ٥١ — ٥٢

(١) الكندي ص ٤٨ ، والمقريزي في الخطط ج ١ ص ٢١٠
(٢) الانتصار لابن دقاق ج ١ ص ٦٣
(٣) الانتصار لابن دقاق ج ٤ ص ٦٣ ، ١٢٠
(٤) أبو صالح الأرمني ورقة ٥٢ ب ، ٥٣ ا
(٥) الانتصار ج ٤ ص ١٠٥

مكتبة ومطبعة عبد الرحمن محمد
بشارع الصنادقية بميدان الجامع الأزهر
تم طبع كتاب شرح صحيح البخاري لشيخ المحدثين الكرماني
٢٥ جزءاً ثمن الجزء ٦٥ مليماً
التفسير الكبير للامام الفخر الرازي
تم منه ٤ أجزاء وسيصدر تباعاً كل شهر جزآن
ثمن الجزء ٦٥ مليماً
مصحف شريف جوامعي ٢٠٠ مليماً
مصحف شريف أوضح التفاسير ١٢ مليماً
كتاب فتح الباري شرح البخاري لابن حجر العسقلاني
١٣ جزءاً ثمن الجزء ١٠٠ مليم وذلك خلاف البريد